مرثية الطنطاوي

بقلم: العلامة أبي تراب الظاهري
مكة المكرمة

مات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، وكان عالماً جليلاً وحبراً عظيماً، كأنه شمس بازغة أفلت، وبدر سافر توارى، وهو ليث غيل، وأسد شرى، وبموته هاض منا الجناح، وطار منا اللب، وارتمض القلب أسى، وتوالى الكمد مدلهماً، وفت العضد، ونالتنا المصيبة والفجيعة الموجعة.

وما كان إلاّ كالسحابة أقلعت وقد تركت في الناس مرعى ومرتعا

فإنا لله وإنا إليه راجعون. نسأل الله أن يمن على المسلمين بالعوض، وأن يمتعهم بالبدل، ومثله قليل في العالم، وموت العالِم موت العالَم، وموت مثله خسارة كبرى، ورزيئة عظمة. فقد كان نصوحاً لوعظه، منوحاً بفضله، مذكراً بربه. وقد منحه الله علماً جماً وحلماً عمّاً، وأوتي قوة في البيان، وطريقة عجيبة في التبيين، يخرج اللفظ من لسانه درراً منظماً ولؤلؤاً منضداً، وإذا كتب فكأن كتابه ديباج خسرواني، وإذا زبر جاء الحرف زبرجداً معقوداً.

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه تُنظم درراً أو تفتح جوهرا

يمتع السامعين بحلو اللفظ وعذب المعنى، فمنطقه معين سلسل وينبوع دفوق ونبع ثر. كان الطنطاوي رحمه الله تولى القضاء، وذلك بسعة علمه بالفقه، وتولى تدريس أمهات الكتب في شتى الفنون. وكتب حتى بز الأقران، وتميز على كثير من الأساطين، وتفنن في التأليف، وكان في أسلوبه عجباً عجاباً.

وكان رحمه الله في عداد العلماء الكبار المثقفين المحققين، وكان عفيفاً جداً وزاهداً، قضى عمره في خدمة العلم، وإلقاء المحاضرات القيمة ذات الفوائد، تنم عن النبوغ والثراء العقلي، وقد ذهب مأسوفاً عليه.

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالِ

حدثني رجل من صالحي مكة المكرمة أنه رأى رؤيا حسنة، كأن ملكاً من الملائكة يقول له: إن الله قد بنى للطنطاوي قصراً في الجنة، فقلت للرجل: لقد قال عليه الصلاة والسلام إن الرؤيا الحسنة بشرى المؤمن يعجل الله له بها في الدنيا.

واستأذنته أن أبلغ الشيخ فقال: إن شئت . فأتيت الشيخ فحدثته، فبكى رحمه الله، ودعا لي وله. نور الله قبره، ولقاه ما ارتجاه من ربه، وجمعنا به في دار الكرامة. آمين.